كلمة أخيرة حول كتاب (من شعراء الإسلام)

بقلم: عبدالله إبراهيم الهويش
السعودية

لما قرأت كلمة الدكتور محمد بن سعد بن حسين حول مقالي المنشور في العدد (٤٥) من هذه المجلة الغراء بعنوان(وقفة مع كتاب من شعراء الإسلام للدكتور محمد بن سعد بن حسين)انتابتني عدة مشاعر أمام هذا الرد الذي اختار أن يجعل عنوانه (تعليق وليس رداً)، وتساءلت لماذا اختار هذا العنوان؟ ولماذا التعليق وليس النقد؟ كما هي العادة في الردود العلمية والأدبية المعتبرة بمقارعة الحجة بالحجة، فما كان حقا اعترف به وما كان باطلا رده، وأوضح جوانب النقص فيه وخاصة من أستاذ النقد في الدراسات العليا، ولكنه هكذا اختار لنفسه.

وحفظاً لوقت القارئ الكريم أذكر أهم النقاط التي رأيت الوقوف عندها ومناقشتها مناقشة مختصرة توضح الحقيقة وهي تتلخص في:

١ - مسألة رفع الدرجة.

٢ - شعراء المملكة في كتابه وكثرة عددهم.

٣ - أنني أطعن في شاعرية بعض العلماء.

٤ - قضية الأدب الإسلامي.

٥ - أنني أطالبه التفصيل في أنساب الشعراء.

٦ - أنني اعتمدت في شعر شوقي على النسخ التي لعبت بها الأهواء.

٧ - عصر أبي تمام في من خلال الواقع التاريخي الصحيح.

٨ - وأخيرا الاتهامات التي وصمني بها سعادته وهي تقارب ثماني عشرة تهمة أورد هنا أهمها للعبرة والعظة وهي:

١ - عدم المعرفة بالمنهج.

٢ - وصفي بالجهل في أكثر من موقع في مقاله.

٣ - قوله:إنني أقول لمجرد القول فقط.

٤ - قوله: إني أخبط خبط عشواء،وإنما أريد أن أقول ولاشيء غير ذلك.

٥ - اتهامي بعدم احترام القارئ،وأني لم أضع ذلك في حسابي مطلقا.

٦ - أنه ينبغي علي ألا أعلم الأستاذ التعامل مع الشيوخ لأن فاقد الشيء لايعطيه.

٧ - اتهامي أن نقدي لكتبه هو لمجرد الطعن.

٨ - قوله: إنني أنطلق في نقدي لمجرد شهوة الكلام وهو- كما يقول – داء لا دواء له إلا الدعاء بالشفاء.

وعندما قرأت هذه الاتهامات الكثيرة اتضح لي أمر كنت حائرا فيه وهو أني عرضت هذه المقالة على أكثر من جهة أدبية في الرياض لنشرها، وكل اعتذر عن النشر من دون سبب يذكر، فلما كتب الأستاذ رده انكشف المستور. وكأن من اعتذر خشي أن تصيبه بعض هذه الاتهامات التي وجهت إلي، مع أني في مقالي لم أتعرض لشخص الدكتور من قريب أو بعيد، وهذا يدركه القارئ المنصف من المقارنة بين المقالتين.

ونعود لنقاط البحث المهمة:

أولا: مسألة رفع الدرجة: يقول : (كثرت النبال علي فلم أنهض لصدها لسببين أولهما أن بعض الناقدين يتسلقون يريدون مهارشة من هو أعلى منهم ليرتفعوا درجة) ومعنى هذا الكلام أنني أهارشه على حد تعبيره من أجل التسلق عليه لأرتفع درجة.

فأقول أولا: لماذا كثرت عليه النبال لولا أن هناك مايدعو إلى ذلك لدى الرجل حتى توجه إليه هذه السهام،ثم إن كلمة (مهارشة) ليست لائقة، لأن المهارشة في الأصل خاصة بين الكلاب، وورد في الصحاح (المهارشة بين الكلاب بعضها البعض)، وقال صاحب القاموس:(الهرش: التحريش بين الكلاب والإفساد بين الناس، والمهارشة: التحريش بين بعضها البعض) فهل أصبح النقاد بمنزلة الكلاب عنده؟

ثانيا: إن من يفعل ذلك أعني التسلق للارتفاع درجة وهو من يكون في حاجة للتسلق والارتفاع ولو عن طريق المهارشة، وهذا ليس شأن كاتب المقال

ولا حاجة إليه. ولله الحمد والمنة، فكل من يعرفني يقدر جهودي، ومكانتي محفوظة لديه، وليعلم الأستاذ أن أول قصيدة قلتها وأول مقال نشرته وأنا على مقاعد الدراسة، أي قبل ست وثلاثين سنة.

ثانيا: شعراء المملكة ووفرة عددهم في الكتاب: ولا يخفى أن الكتاب وضع للشعراء الإسلاميين منذ صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، فهل يصح أن يكون أكثر من ثلث المختارين من بلد واحد؟ فأين بقية شعراء الإسلام في البلاد الأخرى زمانا ومكانا، أما تعليله كثرة شعراء هذه البلاد بأنه يقصد به خدمة أدب بلاده ولا يزايد على ذلك، فأقول: من زايده على ذلك؟ ومن قال: إنه لم يخدم بلاده؟ فهذه قضية أخرى ليست محل نقاش، لأن الموضوع هو أن الكتاب لا يمثل شعراء الإسلام في الأقطار والأزمنة المختلفة، وهذا حق لا يماري فيه أي مصنف.

ثالثا: قوله إني أطعن في شاعرية بعض العلماء: يقول: (ويطعن في شاعرية بعض العلماء بقوله"وهذا النوع وإن احتوى مضامين إسلامية فإن اعتبار أصحابه من الشعراء الإسلاميين وترجمتهم في هذا الكتاب بعيد عن الصواب") ثم يقول:(ومعلوم أن كثيرا من العلماء كانوا من الشعراء المرموقين كالأرجاني ولعله يقصد الجرجاني والتوحيدي الأندلسي وأمثالهما كثير)،فأقول: إن الحديث ليس عن العلماء الشعراء بدليل أنه لم يترجم للجرجاني،ومعلوم مايسمى بشعر العلماء،وأنه ليس بالشعر المعتبر

وقفة مع كتاب
من شعراء الإسلام
للدكتور محمد بن سعد بن حسين

تعقيب الدكتور محمد بن سعد بن حسين:
تعليق وليس رداً

إلا من رزق موهبة الشعر ثم انصرف إلى العلم وتعمق فيه، من أمثال الإمام الشافعي وعروة بن أذينة. أما أكثر العلماء فليس شعرهم هناك، وهو رأي معروف ليس محل أخذ ورد، أما التوحيدي الأندلسي كما يقول، فهو أولا ليس من الأندلس يقول عنه ياقوت الحموي:(علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي شيرازي الأصل وقيل: نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول: إنه الواسطي) (ج٥، ص٩٢٣ ، رقم الترجمة٨٢). وقال السبكي في الطبقات:(المتكلم الصوني صاحب المصنفات، شيرازي الأصل، وقيل: نيسابوري وقيل: واسطي(ج٥ ص٢٨٦)، كما أنه لم يذكر عنه أنه من الشعراء حتى إنه قال عن نفسه: (لست من الشعر والشعراء في شيء) (أمراء البيان ج٢ص٥٠٦). ولعله يقصد أبا حيان الأندلسي صاحب تفسير البحر المحيط الذي ترجم له فيه ص٨٥، إضافة إلى أنني لم أطعن في شاعرية العلماء، ومقالي معروض أمام القارئ، وليس فيه طعن في أحد منهم، وبإمكان من شاء الإطلاع عليه ومعرفة حقيقة الأمر.

رابعا: قضية الأدب الإسلامي: ويقول: (وهذا دليل على جهله"تساهل المؤلف في إيراد بعض الشعراء ممن لا يصلح أن يقال عنهم: إنهم من شعراء الإسلام، بمعنى الالتزام بمضامينه وتمثل قيمه والمنافحة في سبيله وتوظيف شعرهم في سبيل ذلك"ثم قال : إن هناك فرقا بين الذات وإبداع الذات، ولذا فأنا أرفض وصف الشاعر بأنه إسلامي مهما بلغ من الإحسان في إبداعه،ولكن أقول: هذا شعر إسلامي، وبناء على ذلك فإن صاحبه يوصف بأنه من شعراء الإسلام، ولا يوصف بأنه إسلامي، وإنما الذي يوصف بذلك هو الإبداع)، ثم ذكر أنه أوضح ذلك في كتبه في هذا المجال. وهذا الكلام يقبل من المؤلف لو كان عنوان كتابه(الشعر الإسلامي) أما والحديث عن شعراء الإسلام فالأمر في نظري

يختلف، فالحديث عن الشعر الإسلامي بعامة ينظر فيه إلى ذات الشعر، وهل يمثل القيم الإسلامية ومن ثم يحكم عليه، أما عندما يكون الحديث عن الشعراء الإسلاميين أو شعراء الإسلام بالإضافة فهذا يقتضي أن من يوصف بهذا الوصف يكون ممثلا للإسلام فكرا وسلوكا، وهذا أشبه مايكون لو قيل: شعراء الزهد في العصر العباسي، فهل يصح أن نتحدث عن شعراء قالوا بعض الأبيات في الزهد كأبي نواس مثلا، ونصفهم بأنهم شعراء الزهد في هذا العصر؟ أما لو كان الموضوع شعر الزهد في العصر العباسي فإن الحديث ينصب على الشعر نفسه وليس على الشاعر، وأظن هذا لا يخفى على علم الدكتور الفاضل، وحديثه كله ينصب على الشعر الإسلامي وهو ليس محل نزاع. مع أن قضية الشعر الإسلامي قضية لم تحسم بعد، ولا تزال محل نقاش بين المعنيين، وما كتبه الأستاذ في هذا ليس حجة على أحد بل هو مجرد رأيه الشخصي، وهو قابل للمناقشة وليس الفيصل في الموضوع.

خامسا: قوله: إنني أطالبه بالتفصيل في أنساب الشعراء:

يقول: (ومما عده الكاتب تقصيرا عدم التفصيل في أنساب الشعراء ممثلا بأبي تمام) وحتى يطلع القارئ على حقيقة الأمر أنقل له ماذكرت في هذا الصدد لينظر أطالبته بالتفصيل في أنساب الشعراء أم أن الأمر التبس عليه؟. قلت:(كما أنه يعرض لكثير من القضايا ويتركها معلقة بحجة أن الوقت ضيق أو لايتسع، أو أن المجال ليس مجالها، وهكذا كأنما هو في عجلة من أمره مثل نسب أبي تمام ص٦١) وكان مما قاله في كتابه (لا يعنينا أصحت نسبته إلى طيء القبيلة العربية المشهورة أم كان من أهل قرية جاسم من أعمال دمشق أو أن اسم أبيه ماكان أوسا...إلى آخره) فهل يفهم أحد أني أطالبه بالتعرض لنسب الشعراء فضلا عن التفصيل فيه؟! إنما كان التمثيل على تركه قضايا معلقة، فأين هذا من ذلك؟

سادسا: قوله أني اعتمدت في شعر شوقي على النسخ التي لعبت بها الأهواء:

وهذا في الواقع من الرجم بالغيب، وهو ادعاء في غير محله، لأنه لم يطلع ولم يعلم عن مكتبتي التي تحوي كتبا شتى في فنون المعرفة المختلفة ومنها الدواوين الشعرية التي قد تتجاوز ثلاثمائة ديوان، ومنها ديوان شوقي المطبوع قبل الثورة،والشوقيات المجهولة التي جمعها محمد السربوني، ومنها الموسوعة الشوقية التي جمعها ورتبها وشرحها الأستاذ إبراهيم الأبياري في تسعة مجلدات، يقول فيها: (هذه المرة الأولى التي يجمع فيها آثار المرحوم أمير الشعراء أحمد شوقي في جامعة واحدة لايفلت منها شيء)(ج٢ ص٥) فأين النسخ التي لعبت بها الأهواء من هذا كله؟

سابعا: عصر أبي تمام من خلال التاريخ الصحيح:

يقول: (وأما استنكاره وصف عصر أبي تمام بالتساهل فيبدو أنه يجهل واقع تلك الأزمنة) وأقول: إن هذا موضوع له خطورته عندما نحكم على العصور الإسلامية المفضلة بالانحلال والمجون بناء على روايات غير موثقة وردت في كتب الأدب والمسامرات التي لم توضع أصلا لرواية التاريخ الإسلامي في عهوده المشرقة الحافلة بالعطاء والصلاح والجد والاستقامة على العموم، لأن أي مجتمع إنساني كان لا يكاد يخلو من بعض الجوانب الشاذة، ولكنها تبقى في إطارها المحدود، ولا تمثل المجتمع كله، وليست هي الظاهرة البارزة المسيطرة، وإنما هي جانب من جوانب حياة البشر يمثلها حفنة ممن ضعف عندهم التمسك بالقيم لظروفهم الخاصة، فكان منهم هذا التوجه الذي يجب أن يوضع في إطاره الخاص، وخاصة عندما نعلم مصادر هذه الأخبار وحظها من القبول والثقة لدى صيارفة النقد من المحدثين الذين استطاعوا تنقية السنة المشرفة من شوائب الوضع في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى المصادمة مع الحديث المتفق عليه عن عمران بن الحصين وجاء فيه:(خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...) قال الحافظ في الشرح: واستدل بهذا الحديث على تعديل أهل القرون الثلاثة وتقارب منازلهم في الفضل، وهو محمول على الغالب والأكثرية) (الفتح ج٧، ص٧). فهل نترك هذا كله لرأي مستشرق مأفون أو تلميذ مفتون؟!. والموضوع على كل حال يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي والنظر:هل تصلح مثل هذه الكتب للاعتماد عليها في معرفة واقع المجتمع الإسلامي في تلك العصور المتقدمة؟ والله الهادي إلى سواء السبيل■